أخذ هنتنغتون مقولة صدام الحضارات من أرنولد توينبي

هل يغدو الإسلام عقيدة الأمم البروليتارية المتساقطة نتيجة تغريب العالم

حسن الشامي

هنتنغتون

هناك دائما من يأخذ أفكار سابقيه، ينهل أو يستوحي منها، ثم ينعطف بها انعطافة كبيرة ويحولها الى مقلع يستخرج منه نظريات ما أنزل الله بها من سلطان. حصل هذا، مثلا، مع فرضيات داروين التي انقلبت على أيدي التابعين أو المتلقفين الى مذهب عرف باسم الداروينية الاجتماعية. لم يكن الرجل، أي داروين، صاحب أصل الأنواع، يحسب أن انكبابه تأليفا ودرسا على التاريخ الإحيائي الطبيعي، وخلوصه الى فرضيات علمية وضعية تدور على نظام الطبيعة (ليس الثقافة) على <<الطفرات>> و<<الصراع من أجل البقاء>> و<<البقاء للأصلح>>، سوف تتحول الى مادة يبني عليها دعاة في السياسة العرقية وفي تشريح اللغات والثقافات برامج وخطط للسيطرة والتغلب استنادا

الى مذهبية علموية وضعية هذه المرة.
مناسبة هذا التمهيد السريع والمختصر، تتعلق بمقولة <<صدام الحضارات>> لصاحبها صموئيل هنتنغتون التي أسالت وما تزال حبرا يفوق بكثير حبر صفحاتها الصادرة بداية في مجلة وزارة الخارجية الأميركية، قبل أن يتوسع فيها ويزيد من حجمها لتصير كتابا ذا سطوة واعتبار. ويرجح في الظن أن المكانة المميزة المعطاة لمقولة هنتنغتون لا تعود الى عبقريتها بل الى صدورها في مجلة وزارة الخارجية التي يحسب لها تشخيص الآفاق والمشاريع الجيو سياسية الأميركية. ليست مقولة هنتنغتون، في حد ذاتها، هي موضوعنا بل تحدرها من مقولات سابقة وانحرافها عنها ومنها. إذ ليس مستبعدا، بحسب تقدير وحدس كاتب هذه السطور، أن تكون المقولة هذه مأخوذة من أعمال وأفكار المؤرخ الانكليزي الراحل أرنولد توينبي. ومع أن أكثر من نصف قرن يفصل بين الرجلين، ناهيك عن الفوارق الكبيرة في درجة التبحر وسعة الاطلاع والإحاطة، فإن كليهما يحفظ لنفسه التمسك بسلوك ذهني ارستقراطي يحبب إليهما النظر من علو وارتفاع الى مشهد المجتمعات الحضارية على امتداد العالم كله. كان توينبي يستخدم، على سبيل الكناية والتمثيل على منظاره البحثي العريض جدا، صورة الإنسان الناظر من الطائرة الى الجبل الواقع تحتها. حين تبتعد الطائرة، يقول توينبي، وينظر المسافر الى الخلف يصبح مشهد الجبل أكثر وضوحا. السيد هنتنغتون، هو أيضا، ينظر من القمة الى العالم الممتد تحته. غير أن معنى القمة ودلالتها مختلفان بعض الشيء من حال الى حال. ما كان غامضا وملتبسا في نظريات توينبي حول التحدي والرد على التحدي وحول الصدمات الحضارية يصبح واضحا لدى هنتنغتون الذي يجعل من <<صدام الحضارات>> تعبيرا عن أمنية ورغبة أكثر مما هو افتراض وصفي أو ثمرة معاينة بحثية.
القمة التي ينظر منها هنتنغتون الى المشهد العالمي، هي قمة المصالح والاعتبارات الاستراتيجية الأميركية باعتبارها رأس أو معقل الحضارة الغربية، وهو ينظر الى الحضارات الأخرى بالجملة، بحيث يسعه أن ينقص أو يزيد عدد الحضارات الأخرى كما يحلو له. ومهما تأنقت عبارات الباحث الأميركي، فإنه يتصرف ويدعو الى التصرف حيال الحضارات التي لم يكابد مشقة التعرف عليها، بطريقة تعسفية وإجمالية تذكرنا بطريقة الباشوات المصريين في انتزاع الفلاحين بالجملة من حقولهم وسوقهم لأعمال السخرة، وإرجاعهم ناقصي

العدد الى ديارهم، أحد هؤلاء الباشوات قال ذات مرة لتفسير النقص: هل أخذناهم بأعداد معلومة كي نردهم غير ناقصي العدد؟.
الزيلوت والهيرودوسيون
لم يكن توينبي بهذا الوضوح الدعاوي، وإن كان يعتبر أن الحدث المركزي في تاريخ البشرية منذ قرنين والى أمد قد يطول أو يقصر، إنما هو نجاح الحضارة الغربية في إلقاء شباكها على العالم كله، وإمعانها في مشروع لقولبة سائر المجتمعات على صورتها ومثالها، أي لغربنتها أو <<تمغربها>>. عدم وضوح توينبي يعود الى تشاؤمه وقلقه التاريخيين، إذ ان تبحره في دراسة الحضارات التي كان يعتبرها حصرا موضوع التاريخ بامتياز، واستناده على فرضيات التعاقب الدوري للحضارات والديانات الكبرى، دفعاه الى اعتبار الحضارة، مثله مثل ابن خلدون في ما يخص العصبيات والدول، أشبه بالأجسام الحية ذات الأعمار المعلومة والمقدرة وذات الأطوار المتبدلة على التوالي. نعلم أن توينبي تأثر الى حد ما بأعمال نظيره الألماني أوزوالد شبنغلر (صاحب كتاب تقهقر الغرب)، ونعلم أن مؤرخين كثيرين انتقدوا بحق منظار توينبي وشبنغلر العريض جدا بحيث يجيز لهما المقارنة بين حوادث متباعدة جدا في الزمن، ويجيز لهما اجتياز الحقب والمراحل بسرعة القطار العابر للزمن. ما يعنينا الآن هو تقديرات توينبي، قبل أكثر من نصف قرن، لمنطق ودروس الالتقاء بين الإسلام والغرب، وتوقعاته المستقبلية لمآل الالتقاء الصدامي بين حضارتي الغرب والإسلام. ذلك أن الرجل كان ينظر الى اصطدام الحضارات كما لو أنها نيازك وأجرام تطحن الواحدة الأخرى ولا تظهر مفاعيل اصطدامها إلا على المدى الطويل. وبما أنه جعل من الصدمات الحضارية مدار روايته التاريخية للبشرية كلها، فإنه أجاز لنفسه، على طريقة الفلكيين بعض الشيء، أن يتنبأ بأشياء حين نقرأها اليوم تأخذنا الدهشة أو بعضها. فلنرصد تنبؤات توينبي. كتب المؤرخ الانكليزي، في نهاية الأربعينات على الأرجح، نصا حول <<الإسلام والغرب والمستقبل>>، قد يكون في الأساس محاضرة ألقاها في إحدى الجامعات. يرى توينبي، في نصه هذا، أنه حصلت في الماضي عدة التقاءات بين الاسلام والمجتمع الغربي، وانهما اثرا الواحد في الآخر في ظروف مختلفة وبأدوار مختلفة، وحصل اللقاء الأول عندما <<كان المجتمع الغربي في طور طفولته>>، فيما كان الإسلام ديانة العرب بامتياز في أيام عزهم. نجح العرب في السيطرة على المجالات الخاصة بالحضارات القديمة في

الشرق الأوسط، وسعوا الى توسيع امبراطوريتهم وجعلها <<دولة عالمية>>. هكذا، غمر المسلمون نصف المجال الأصلي للحضارة الغربية وأوشكوا على امتصاص هذا المجال بكامله، احتفظ المسلمون بأفريقيا الشمالية وبالجزيرة الايبرية وبقسم من منطقة الغوتي الغاليّة وكادوا بعد قرن ونيف ان يستولوا على ايطاليا. ثم نهضت الحضارة الغربية وخاضت حروبا على امتداد جبهة بحرية طويلة عبر جزيرة صقلية. في أثناء ذلك تقريبا، حصل للإسلام ما حصل للمسيحية قبل بضعة قرون، إذ تعرضت مناطق الإسلام لهجمات الصليبيين من جهة، ولهجمة قبائل الغزاة القادمين من آسيا الوسطى. غير ان الإسلام، كما المسيحية، خرج منتصرا من هذه الهجمات. فالغزاة (المغول) اعتنقوا الإسلام، والغزاة الافرنج رُدوا على أعقابهم. واقتصرت نتائج الحروب الصليبية على الحاق صقلية والأندلس الإسلاميتين بالعالم الغربي. وكانت النتائج الاقتصادية والثقافية للحملات الصليبية أكثر أهمية. فالإسلام استطاع ان يتحكم <<بالغزاة المتوحشين>>، وأدخل فنون الحضارة الى قلب الحياة البسيطة للمسيحية اللاتينية. وكان للإسلام تأثير كبير في ميادين عدة، مثل العمارة، ناهيك عن تأثيره الأعمق في صقلية والأندلس. وعليه فإن محاولات الغرب القروسطي لاستئصال الإسلام أخفقت كليا كما أخفق العرب بدورهم في السيطرة على مهد الحضارة الغربية. الهجمة الفاشلة استدعت، كما في كل مرة، هجمة مضادة. الهجوم الإسلامي جاء هذه المرة من العثمانيين الذين استولوا على ديار ومجال المسيحية الأرثوذكسية، والذين سعوا الى توسيع امبراطوريتهم وتحويلها الى دولة عالمية على الطراز العربي والروماني. بقي الغرب في وضعية دفاعية حيال العثمانيين، إلا ان الغربيين لم يصرفوا معظم طاقتهم في المواجهة، بل اكتفوا بالقليل، فيما انطلقوا للسيطرة على المحيطات، أي نظريا على العالم. باكتشافهم أميركا، لم يسبقوا المسلمين فحسب، بل توغلوا كذلك داخل المجالات المحسوبة في عداد الإرث الإسلامي، مثل أندونيسيا والهند وأفريقيا الاستوائية. وفي النهاية، بعد ان حاصروا العالم الإسلامي وألقوا عليه شباكهم، انتقلوا الى الهجوم على عدوهم القديم في عقر داره. <<هذا الهجوم المركز الذي قام به الغرب الحديث ضد عالم الإسلام، كان بمثابة تدشين للنزاع الحالي بين الحضارتين>>. غير ان هذا الهجوم يندرج في إطار حركة أوسع بكثير وأكثر طموحا، تهدف منها الحضارة الغربية الى دمج الإنسانية كلها في مجتمع كبير واحد، والى السيطرة والاشراف على كل ما يمكن للبشرية ان تستغله، برا

وبحرا وجوا، بفضل التقنية الغربية الحديثة.
يرى توينبي ان ما يصنعه الغرب بالإسلام يصنعه كذلك بالحضارات الأخرى المسيحية الأرثوذكسية، الهند، عالم الشرق الأقصى وكذلك بما تبقى من المجتمعات البدائية. ومع ان اللقاء الراهن بين الإسلام والغرب بات أكثر فعالية وحميمية من أي وقت سابق، فإنه مجرد حادث عرضي في سياق مشروع الإنسان الغربي <<لتغريب>> العالم، وها هو الإسلام، وان كان محاصرا، يتصدى مرة أخرى للغرب. فوضعية الإسلام اليوم أخطر بكثير مما كانت عليه أيام الحروب الصليبية. <<ذلك ان الغرب الحديث لا يتفوق عليه بالسلاح فقط، بل يسيطر عليه كذلك بواسطة تقنية الحياة الاقتصادية التي يخضع لها في التحليل الأخير العلم العسكري، ويتفوق عليه، فوق كل شيء، بثقافته الروحية القوة الداخلية التي وحدها تبتكر وتسند التمظهرات الخارجية لما نطلق عليه اسم الحضارة>>. وكما هي الحال دائما عندما يجد مجتمع حضاري نفسه في وضع خطير حيال مجتمع آخر، ينشأ نهجان وطريقان للرد على التهديد، ويسعنا، بحسب توينبي، ان نشاهد أمثلة واضحة على هذين النوعين من الرد خلال رصد رد الفعل الإسلامي على الضغط الحالي للغرب. يصف توينبي او يشخّص النوعين المذكورين من الرد الإسلامي على التهديد الغربي، بالاستناد الى نماذج مأخوذة من أوضاع <<مشابهة>>، ولو قبل أكثر من ألفي سنة، عندما حصل الالتقاء بين حضارتين قديمتين، اليونان وسوريا (او بلاد الشام). فتحت وطأة الصدمة التي أحدثتها الهيللينية خلال القرون التي سبقت وتلت مباشرة بداية الحقبة المسيحية، انقسم اليهود (ويمكننا، والكلام لتوينبي، ان نضيف الايرانيين والمصريين) الى الى فريقين: أصحاب الفريق الأول أصبحوا <<متزمّتين>> (زيلوت)، أما الآخرون فأصبحوا <<هيروديسيين>> (نسبة الى قائدهم هيرودس).
المتزمّت (الزيلوت)، في عرف توينبي، <<هو الانسان الذي يدفعه الخوف من المجهول الى الاحتماء بالمألوف>>. بل حتى يمكن تعريف نزعة التزمّت، بحسب توينبي، على انها نوع من <<الماضوية البالية>> التي يستثيرها ضغط خارجي. ممثلو هذه النزعة في الإسلام المعاصر، يضيف توينبي، هم <<المتشددون الطهرانيون>> مثل أنصار الطريقة السنوسية في أفريقيا الشمالية، و<<الوهابية>> في الجزيرة العربية. ويلاحظ الرجل ان <<متزمّتي>> الإسلام ومعاقلهم موجودون في المناطق المقفرة والعقيمة،

المسكونة بطريقة عشوائية، والبعيدة عن الخطوط الرئيسية للاتصالات الدولية للعالم الحديث، وهي مناطق ظلت، حتى وقت قريب من بداية عصر النفط، مهملة لم تطلها روح المشروع الغربي. ويعتبر توينبي ان حركة المهدي السوداني محمد أحمد التي سيطرت على السودان الشرقي ما بين عام 1883 وعام 1898، إنما هي الاستثناء الذي يؤكد القاعدة. ويرى انه يمكن مقارنة انتصار المهدي العابر، بالانتصار الذي حققه يهود <<الماكابيه>> في مواجهة الضغط الهيللينى. وكما نجح الرومان في سحق اليهود <<المتزمتين>> في القرنين الأول والثاني من العهد المسيحي، <<فإنه سيكون في مقدور أي قوة كبيرة في العالم الغربي اليوم فلنقل أنها الولايات المتحدة (والكلام حرفيا لتوينبي)، ومتى تشاء، أن تسحق الوهابيين في حال ما تحولت نزعة <<التزمت>> الوهابية الى عائق مزعج الى الحد الذي يقتضي القيام بإلغائه. يمكننا أن نفترض، على سبيل المثال، أن الحكومة العربية السعودية، وتحت ضغط أنصارها المتعصبين، تروح تطلب وضع شروط مغالية لتلزيمات النفط، أو أن تتخذ إجراءات لتمنع بالكامل استغلال ثرواتها النفطية. إن الاكتشاف الحديث العهد لهذه الثروات المطمورة في الأرض القاحلة للسعودية يشكل بالتأكيد تهديدا لاستقلال الجزيرة العربية. ذلك أن الغرب تعلم الآن كيف يقهر الصحراء واضعا قيد العمل اختراعاته التقنية>>. هذه نبوءة أولى.

السلاح الغربي

يرى توينبي، من جهة أخرى، أن <<المتزمت>> (الزيلوت) المسلح ببندقية أوتوماتيكية لا يعود <<متزمتا>> خالصا، لأنه في اللحظة التي يتبنى فيها سلاح الإنسان الغربي، يكون قد وضع قدميه فوق أرض لم تعد ثابتة. ومن المؤكد أنه في حال ما راودته الفكرة وهو أمر قليل الاحتمال، لأن المزاج <<الزيلوتي>> (المتزمت) لهو جوهري غير عقلاني وغريزي فإنه سيسر في نفسه الذهاب الى حد معين وليس أبعد من ذلك؛ وبما أنه تبنى ما يكفي من التقنية العسكرية الغربية بحيث يضع على مرمى البندقية أية قوة غربية عدوانية، فإنه سيكرس حريته المحفوظة على هذا النحو <<لاحترام الشريعة>> واستدرار بركات الله، له ولذريته. للتدليل على ما يقول يستشهد توينبي بوقائع محادثة جرت عام 1920 بين الإمام الزيدي يحيى في صنعاء مع مبعوث بريطاني جاء لإقناع الإمام بإعادة جزء من المحمية البريطانية في عدن التي احتلها الإمام خلال الحرب الأولى ثم رفض الانسحاب منها بعد ذلك. في

هذه المحادثة التي لم تثمر شيئا، امتدح المبعوث البريطاني الطابع العسكري الحديث لجيش الإمام يحيى وسأله إذا كان سيتبنى كذلك مؤسسات غربية أخرى. وأجابه الإمام بأنه لن يفعل ذلك ولن يتبنى البرلمانات التي قد يجدها مضجرة ولا المشروبات الكحولية، <<ولا هذا النوع من الأشياء>>. وقد أعلمه الرجل البريطاني بأن البرلمانات ليست ركنا أساسيا للحضارة الغربية (فلم تأخذ بها إيطاليا مثلا)، والكحول ليست هي الأخرى مكملا لا غنى عنه للحضارة الغربية، فقد منعتها أميركا وهي مع ذلك واحدة من أكبر القوى الغربية.

يستخلص توينبي من هذه الحادثة مقولة مفادها أن عبارات الإمام يحيى وأمثاله تدل بوضوح على أنه ينظر من مسافة كبيرة الى المجتمع الغربي، ويظهر له هذا المجتمع كما لو أنه شيء واحد لا يقبل القسمة والتجزؤ، ويتعرف على بعض ملامحه كما لو أنها متصلة عضويا بهذا المجموع المتلاحم، بينما تبدو هذه الملامح، في النظرة الغربية، لا علاقة لبعضها بالبعض الآخر. ويرى توينبي أن تبني الإمام لمبادئ التقنية الحربية الغربية أدخل في حياة شعبه الطرف الرفيع من زاوية سوف تشق ذات يوم الى نصفين <<حضارته الإسلامية المغلقة والمرصوصة>> وتحدث فيها شرخا. لقد شرع الإمام في ثورة ثقافية لن تترك في نهاية المطاف أمام اليمنيين <<أي خيار آخر سوى تغطية عدائهم بالألبسة الجاهزة على الطريقة الغربية>>. وقد حصل هذا لشعوب إسلامية أخرى قبل عدة أجيال، كما هي الحال مع تجربة محمد علي باشا والي مصر. تجربة محمد علي تقود توينبي الى الحديث عن النوع الآخر من الرد على التهديد الناجم عن ضغط الحضارة الغربية. وإذا كان الإمام يحيى يمثل نزعة <<التزمت>> في الإسلام الحديث، ولو كان تزمتا مخففا ومعدلا، فإن محمد علي يمثل النزعة <<الهيروديسية>>، وبعبقرية تساوي عبقرية البطل (هيرودس) الذي يحمل هذا الفريق اسمه. والحق أن محمد علي لم يكن أول هيروديسي يظهر في بلاد الإسلام. فقد سبقه الى ذلك السلطان العثماني سليم الثالث.

<<الهيروديسي، بحسب توينبي، هو الإنسان الذي يتصرف مطبقا المبدأ التالي: أفضل طريقة للدفاع عن الذات ضد المجهول (أو الغريب) هي اكتناه سره>>. وحين يجد نفسه بمواجهة خصم أكثر مراسا وأفضل تسليحا، فإنه يجابه تاركا فنه العسكري التقليدي، ويتعلم القتال وفقا لتكتيك وأسلحة العدو.

<<إذا كانت النزعة التزمتية هي شكل من الماضوية البالية التي يستثيرها ضغط خارجي، فإن <<الهيروديسية>> هي شكل من الكوسموبوليتية التي يستثيرها، بالضبط، العامل الخارجي ذاته>>. ويرى توينبي أنه ليس مصادفة أن تكون مواقع <<الزيلوتية>> الإسلامية الحديثة قائمة في جرود وواحات منطقة نجد والصحراء، فيما تركزت تعبيرات الهيروديسية في اسطنبول والقاهرة، منذ أيام سليم الثالث ومحمد علي باشا. فالمدينتان اللتان كانتا مدارين للهيروديسية تقعان على كبرى الطرق الدولية، وتمتعهما بأهمية استراتيجية، إضافة الى ثرواتهما الاقتصادية، جعلتهما تجتذبان المشروع الغربي. وغني عن القول، بحسب توينبي، أن الجواب <<الهيروديسي>> على التحدي أكثر فعالية بكثير من الرد الآخر. فالمتزمت يحاول العثور على ملجأ من الماضي، مثله مثل النعامة التي تدفن رأسها في الرمل كي تتخلص من مطارديها، الهيروديسي يواجه الحاضر بشجاعة ويستكشف المستقبل. <<مع ذلك فإن الرد الهيروديسي على التحدي الغربي لا يقدم حلا صائبا للمسألة الغربية. وللتدليل على ذلك يستشهد توينبي بالتجربتين التركية (الكمالية) والمصرية للقول بإنهما لم ينجحا. هناك نقطتا ضعف ملازمتان للهيروديسية، الأولى هي أن <<الهيروديسية>> تقوم على التقليد والمحاكاة (أو الاقتداء إذا شئنا استخدام كلمة ابن خلدون)، وليس على الابداع، ذلك أنها في حال نجاحها، لا تفعل سوى زيادة كمية السلع المصنعة بطريقة مقلّدة لمجتمع أجنبي، <<بدلاً من ان تطلق داخل النفوس البشرية طاقات خلاقة جديدة>>! نقطة الضعف الثانية هي، أي الهيروديسية، لا تضمن الخلاص والنجاة إلا لأقلية صغيرة من الجماعة السالكة طريق الهيروديسية. فالآخرون، أي الغالبية العظمى، لا يقدرون حتى أن يكونوا مجرد أعضاء سلبيين في هذه الحضارة المقلدة. ويستشهد توينبي <<بملاحظة ثاقبة>> للزعيم الإيطالي موسوليني مفادها أن هناك أمماً بروليتارية، مثلما هناك طبقات وأفراد بروليتاريين. وضمن هذه الفئة ستندرج على الأرجح الشعوب غير الغربية، حتى وان نجحت بفضل <<الهيروديسية>> في تحويل بلادها ظاهرياً إلى دول مستقلة وذات سيادة على المثال الغربي.

الجامعة الإسلامية

يخلص توينبي، في ما يخص تأثيرات اللقاء بين الإسلام والغرب على مستقبل البشرية، إلى انه يمكن إغفال شأن <<الزيلوتيين>> و<<الهيروديسيين>> المسلمين على حد سواء. فلا هذا ولا ذاك، في حال نجاتهما من التدمير،

سيقدمان أدنى مساهمة خلاقة في نمو لاحق للحضارة الحيّة، ويرى توينبي ان الردّين الإسلاميين هذين تصادما غير مرة وألحقا ببعضهما البعض دماراً كبيراً. وإذا كان الغربي يستخدم السوط لمعاقبة <<المتزمت>> المسلم، فإن الهيروديسي يستخدم العقارب أي بقسوة أكبر وأشد بكثير. أما مصير غالبية المسلمين، فلن يكون الإبادة ولا التحنّط، ولا الذوبان، بل الانضواء ضمن البروليتاريا الواسعة والكوسموبوليتية الكبيرة الوطأة والتي تشكل أحد المنتوجات الدونية الرديئة لعملية <<تغريب>> العالم. ويمكن التوقع بأن الإسلام، أثناء تغلغله في هذا العالم البروليتاري، <<في هذه الطبقة السفلى من حضارتنا الغربية المعاصرة، سيدخل في النهاية على خط الهند، الشرق الأقصى وروسيا، كي يزاحمهم على تأثيرهم في المستقبل. وهذه نبوءة ثانية. وكما حصل في أوقات بعيدة، ونشأ عن اصطدام الحضارات، خصوصاً في العالم السفلي للبروليتاريا الشرقية، ديانات كبرى، فإنه ليس من المستبعد أن تنشأ عن الصدام الحالي، ولو بعد فترة بعيدة، حركات روحية يمكنها ان تتحول إلى لبنات لديانات كبرى جديدة. وفي هذا السياق، يمكن للإسلام أن يلعب دوراً إيجابياً في الحياة الاجتماعية للبروليتاريا الجديدة الكوسموبوليتية. ذلك ان هناك مصدرين للخطر في الحياة الغربية الراهنة وهما الوعي العرقي والكحول. ففيما يخص موضوع الأعراق، يرى توينبي أن إطفاء الضغائن على أساس العرق بين المسلمين هو أحد الانجازات الأخلاقية الكبرى للإسلام، وقد باتت الحاجة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية أمراً ملحاً. كذلك الأمر بالنسبة إلى الكحول التي تسببت بتدمير مجتمعات بكاملها. غير ان الخليط العالمي الواسع هذا يمكنه ان يصل إلى نوع من التوليف كما يمكنه أن يفضي إلى انفجار، إلى كارثة، وفي الحالة الأخيرة، يمكن للإسلام أن يلعب دوراً مختلفاً، وان يتحول إلى مؤثر قوي في احداث ردّ فعل عنيف في العالم الدوني الكوسموبوليتي ضد أسياده الغربيين. وها هنا، يشير توينبي إلى <<الجامعة الإسلامية>> التي يعتبرها تمظهراً لغريزة اجتماع قطيعي كما يحصل لدى قطيع من الجواميس المتفرقة في السهل، والتي ترص صفوفها وترفع قرونها عندما يخرج عليها عدو. من الناحية البسيكولوجية، تحتاج فكرة <<الجامعة الإسلامية>> إلى متزمتين <<من النوع الوهابي أو السنوسي>>. غير أن هناك صعوبات كثيرة تحول دون نجاح <<الجامعة الإسلامية>>، ناهيك عن أن معظم الشعوب الإسلامية قد سلكت طريق القومية. لقد فشل السلطان عبد الحميد من قبل في

تفعيل <<الجامعة الإسلامية>>، وبعد تخلي تركيا عن الخلافة تبدو هذه الجامعة الإسلامية راقدة ونائمة، ولكن ينبغي ان نأخذ في الحسبان احتمال أن يستيقظ النائم إذا ما انتفضت البروليتاريا الكوسموبوليتية للعالم <<المتغرب>> ضد السيطرة الغربية.

نترك للقارئ أن يستنتج أين صدقت تنبؤات توينبي وأين أخطأت، مكتفين بالإشارة إلى ان المؤرخ المتبحر في حياة الحضارات يفسح في المجال للتوقعات والتنبؤات لأنه يرغب في استخراج دروس وعبر من تاريخ البشرية أثناء انكبابه على كتابة روايتها التي تظل تضع قدماً في التاريخ الوضعي وقدماً في اللاهوت المسيحي. وهو لم يكن يخفي رغبته في أن يرتقي بالتاريخ إلى مصاف اللاهوت وأخلاقه. وهذه مفارقة من بين مفارقات أخرى لا يعدمها منظار توينبي.